المجمع الدولي في جزر موريتيوس
تموز ٢٠٠٥

الزواج والروحانية الزوجية في قلب أخويات عائلات مريم

جيرار وماري كريستين دوروبيرتي

نبذة تاريخية

"كثيراً ما شاع عن الكنيسة أنها ترتاب في الحب البشري وهذا ظن خاطئ. لذلك نريد أن نقول لكم اليوم بوضوح: الله ليس عدواً للحقائق البشرية الكبرى والكنيسة لا تستخف البتة بالقيم اليومية التي تحياها ملايين العائلات". بهذه الكلمات توجه البابا بولس السادس في ٤ أيار ١٩٧٠ إلى أخويات عائلات مريم، وأشاد بالأزواج "الذين إذ جعلتهم النعمة قادرين على أن يعيشوا حياة مقدسة"، جعلوا من عائلتهم معبداً للكنيسة في البيت.

بالرغم من ذلك، لم يكن الأمر بهذه الصورة لقرون عديدة، فكثيراً ما أظهرت الكنيسة خوفها وشكوكها تجاه الأزواج والحب البشري. وفي مناسبات كثيرة بُذِلت محاولات لتحفيز حياة دينية خاصة داخل العائلات إلا أن هذا التيار لم يتحقق فعلياً ولم يتخذ اسم "الروحانية الزوجية" إلا في نهاية الثلاثينات من القرن الماضي مع ولادة أخويات عائلات مريم.

لقد عكست أخويات عائلات مريم تحولاً سريعاً في الأفكار بين

* من جهة خطاب رسمي طالما بقي متعلقاً بالخلية العائلية المرتبطة بالأولاد وبالزواج الذي فرضته طبيعة المجتمع والذي لا يبرره إلا فعل الإنجاب.

* ومن جهة أخرى، استعادة أهمية الزوجين فهما الدليل على أن قيمة العلاقة الزوجية قد أصبحت محور الحقيقة العائلية والضامن لاستقرارها. أصبح كل ذلك ممكناً مع نشر التوجيه الرسولي "الزواج العفيف" عام ١٩٣٠. لقد سمح هذا التوجيه بأن نقول بأن الحب البشري الذي أصبح مقياساً لكل حب هو الأساس لحياة منفتحة على الحقائق الروحية وكما كان الأب كافاريل يعبّر بأن الزوجين المسيحيين "اللذين يبنيان حبهما وحب الله في الوقت ذاته"، يمكنهما من الآن فصاعداً عيش إيمانهما داخل عائلتهما والأفضل من ذلك عيشه زوجياً.

هذه الخطوة الجديدة التي تستند إلى مفهوم إيجابي للحب الزوجي تؤدي إلى الرغبة في عيش التبادلات الروحية بين الأزواج. وهذا التركيز على الزوجين يستدعي مقاربة تشدد على الجوانب اللاهوتية للزواج وعلى اعتبار الحب البشري حقيقة حسّنها التقدم الروحي بين الزوجين.

لنستمع إلى الأب كافاريل يحدثنا عن بدايات أخويات عائلات مريم:

"في البداية تجدون أربع عائلات فتية، غنية بحب جديد. وبما أنهم مسيحيون أصيلون، لم يرغبوا أن يعيشوا حبهم بمعزل عن إيمانهم. وفي غياب أفكار دقيقة حول عقيدة الزواج المسيحي، أتاهم حدس ملأهم رجاء "هذا الحب البشري الذي يشكل ثروتنا وفرحنا، لا يمكن إلا أن يكون الله قد أراده جميلاً جداً وكبيراً جداً. نحن نريد أن نعرف ذلك ونطلب منك أن تظهره لنا".

"عند سماعهم، أحسست دونما صعوبة أنني سوف أخيّب أملهم بقسوة إذا ما اكتفيت بإعطائهم تعاريف قانونية وبتقديم قواعد أخلاقية. ففي ظروف مشابهة أخرى لكنت تلقيت رداً ساخراً وخائباً "تكلّمك على الحب فتتحدث عن العائلة!".

لم أكن متقدماً كثيراً عن محاوريّ. إلا أنه كانت لدي قناعة شديدة بأن كون مصدر الحب هو الله، لا بد أن يكون الفكر الإلهي أكثر تمجيداً للحب والزواج من كل ما يمكن أن يتصوره هؤلاء الشبان والشابات، فكان جوابي "لنبحث معاً".

هكذا ولدت أخويات عائلات مريم وتطورت الروحانية الزوجية.

ما هي الروحانية الزوجية؟

يقرّ الكثيرون بالارتباك أمام هذا السؤال. وحتى بعد سنوات كثيرة قضيناها في خدمة الرابطة نشعر بالارتباك وتنقصنا الأفكار الواضحة والبسيطة حين يطرح علينا هذا السؤال الجوهري: ما هي الروحانية الزوجية؟

سوف يجيب البعض بكناية تقول بأن روحانية المتزوجين المسيحيين هي موضوع اكتشاف دائم. وهذا صحيح!

وسوف يجيب البعض الآخر بأنه لا فارق بين روحانية العازبين وروحانية المتزوجين لأنه لا يوجد نوعان من القداسة، وفي نهاية الأمر سوف نحاسب جميعنا على الحب الذي عشناه... وهذا صحيح!

وبعضهم سوف يبحث في ما يجب أن يعمل المسيحيون المتزوجون وغير المتزوجين ليقولوا إننا جميعنا مدعوون للصلاة والمسامحة وعيش الأسرار وأن ينعش حياتهم الإيمان والرجاء والمحبة... وهذا صحيح!

وما هو صحيح وجوب البحث في جوهر وجودنا كأبناء لله ففي هذا بداية لشرح معنى الروحانية الزوجية.

كل منا باعتباره معمّداً مدعو من الله إلى الكمال المسيحي أي إلى أن يبني على هذه الأرض وفي حياته الإيمانية شروط القداسة التي ستعطى لنا في الملكوت الأبدي يوم قيامة الموتى.

هذا الكمال، طريق القداسة، هو في اتحاد الروح مع الله، وهو أمر فردي وشخصي. تأخذ روحانيتنا الزوجية أصولها في نِعَم سر المعمودية وتحصل على قوتها في نِعَم التثبيت وحيويتها في الافخارستيا وتُصلح ذاتها في غفران سر المصالحة...

حتى هنا لا يوجد فارق مع الحياة الروحية للأشخاص غير المتزوجين.

فلكي يجد الزوجان خاصية "الروحانية الزوجية"، من المهم أن يتابعا زوجياً طريق الإيمان بالتعاون الروحي المتبادل. هذا البحث هو العامل الأفضل للعهد وللاتحاد الروحي بين الزوجين وهذا ما طلبه الرب منا: "كونوا واحداً كما أن الآب وأنا واحد".

لا شك أن وسيلة اتحاد الزوجين الأمثل تكمن في جميع العناصر التي أتينا على ذكرها. إلا أن هذا غير كاف... إذ ينقص ما يكرّس اتحاد الزوجين ويعظّمه فيسمح لهما أن يكونا "واحداً" كما أن يسوع وأباه "واحد"، وما ذلك إلا سر الزواج.

إن سر الزواج، هذه الوسيلة العظيمة والفائقة الطبيعة المقدمة إلى المسيحيين المتزوجين، هو الذي يتيح وحدتهما: "يا رب، بما أنك حين خلقت الرجل والمرأة أردت أن يكونا واحداً، اربط بحب لا ينقسم أولئك الذين سيتزوجون".

وهو يتيح تقديسهما: "يا رب، لقد قدّست الزواج بسرّ كلّي الجمال جعلت منه سر العهد بين المسيح وكنيسته".

لذلك لا وجود لروحانية زوجية بمعزل عن سر الزواج الذي نتلقى بواسطته زاداً لا ينضب من النِعَم يسمح بأن نأمل تحقيق الكمال المدعو إليه كل مسيحي متزوج.

سر الزواج يؤسس الروحانية الزوجية

يؤسس سر الزواج روحانيتنا الزوجية حين يسمح للزوجين اللذين يقدّم كل منهما نفسه ويتلقى الآخر، يسمح لهما أن يستقبلا تكريس الله لاتحادهما.

حين يقرر كائنان بشريان التقرب الواحد من الآخر ووضع أيديهما الواحد بأيدي الآخر، وجمع جسديهما وروحيهما وحياتيهما، ماذا يقدّم الواحد للآخر؟ إنه يقدّم إنسانيته الفقيرة وغير الكاملة باعتباره أحد الخطأة الذين يراوحون بين الخير والشر. وسوف يواجهان الحياة الكفيلة بأن تقدم لهما ما تحتويه من صعوبات وأزمات... تجاه هذا الأفق غير المشجع سيكونان محقّين في التصرف كالكثيرين غيرهما وذلك برفض الزواج والعيش بدون وهم.

سيكونان محقّين إلا إذا ما تدخل شخص ثالث هو المسيح الذي يحضر ليختم اتحاد هذين الكائنين وعهدهما. المسيح بالذات من يعقد قران الزوجين الشابين، وبالمقابل الزوجان يقومان بخدمة الأسرار.

حينذاك يتغير كل شيء، إذ يقوم الرب بالذات برعاية هذا الاتحاد البشري الضعيف وهذا الحب الهش. وفي صراعهما اليومي ضد جميع القوى التي تهدد حميمتهما وأمانتهما واستمرار اتحادهما، يكون الزوجان مدعومَين ومحمولَين بقوة أخرى هي قوة الله الذي يحمل العالم فهو القوة الخلاقة لإرادتهما وحبهما.

والله الذي نذر الزوجين أحدهما للآخر في سر لقائهما، وهما الكائنان من الروح والتراب، يرافقهما منذ اليوم الأول ويعلن جهراً يوم التزامهما أن تلك هي إرادته. ومن الآن فصاعداً سيكون الله خميرة

اتحادهما كالماء الذي يمزج الاسمنت بالرمل ليعمل منها البيتون. يعمل الله فيهما عمل الخباز الذي يجبل الماء والطحين كي يأخذ الخبز شكلاً.

لما كان المسيح معهما منذ يوم لقائهما فهو لن يكتفي بأن يكون معهما يوم اتحادهما بل سيكون فيهما إذ إنه يريد تطهير حياتهما الزوجية وإحياءها من الداخل في كل لحظة.

هذه النِعَم التي يتلقاها الزوجان يوم اتحادهما هي أكثر من هبة، إنها وجود للكلي القدرة، إنه الله يعمل في حياتهما. حينها تكمن الحياة الروحية الزوجية أي الروحانية الزوجية في أن تفعّل في حياة كل من الزوجين وفي حياتهما الزوجية المشتركة، وسائل الاستقبال واللقاء مع الله الذي يعمل فيهما، الله الذي يعمل بيسوع المسيح في وحدة الروح القدس.

نِعَم الزواج والروحانية الزوجية

لتسهيل عمل الرب في قلب حبهما الذي كرّسه الزواج، يتلقى الزوجان كما ذكرنا زاداً من النِعَم بصورة آلاف أشكال الأيام التي تمر والحب الذي ينمو.

يقابل كلاً من هذه النِعَم التي لن نقوم بسردها إذ لا نهاية لها، يقابلها موقف في الحياة المسيحية وطقس زوجي ونقطة جهد حسية وفضيلة ينبغي تطويرها وهبة يجب تقديمها واستقبال مطلوب تحقيقه إلخ...

هذه النِعَم من الحب والعطاء والمسامحة والطهارة والتغيّر والتضحية والخصوبة إلخ...، ستكون إحدى المهمات الأولى للروحانية المعيشة بقوة اكتشافها وتقييمها والإيمان بقدرتها العجائبية.

كان المسيح في الإنجيل يتطلب الإيمان: "هل تؤمن؟... تعال واتبعني... إذهب فإيمانك خلصك...". وهو لا يتطلب أكثر من ذلك من أولئك الذين يقدمون على الزواج: "هل تؤمنان أنني من يعمل في حبكما؟ بواسطة حياتكما الزوجية؟ هل تؤمنان أنني أهبكما في كل لحظة القدرة على تجاوز ذاتيكما وتجاوز شخصيكما وأنانيتكما؟". في الواقع، حين يتبادل الخطيبان كلمة "نعم" فهما في الحقيقة يقولان في الوقت ذاته "نعم" رداً على نداء المسيح.

ومنذ تلك اللحظة يجيبهما الرب وهو يجمعهما: "يمكنكما الاعتماد عليّ فأنا هنا لمساعدتكما على درب الحياة هذا، الدرب البشري والدرب الروحي. لقد عقدتما عهداً الواحد مع الآخر كما عقدتما عهداً معي. ولكي أبيّن لكما كم هو قوي هذا العهد فإنني أؤكد لكما في الحقيقة أن هذه العلاقة تشبه تلك العلاقة الموجودة بين الآب وبيني فأنا هنا في قلب عهدكما: "وأنا وهبت لهم ما وهبت لي من المجد ليكونوا واحداً كما نحن واحد: أنا فيهم وأنت فيّ". (يوحنا ١٧: ٢٢-٢٣).

ومثل كل عمل، سواء كان بشرياً أو روحياً، ما أعطي الإنسان لا يدوم إلا إذا ما رعاه الإنسان. وهذا ينطبق على الحب البشري كما ينطبق على العلاقة مع الله. تترجم الروحانية الزوجية من خلال جميع أعمال الإيمان الخارجية والظاهرة المتعلقة بعطاء الزوجين إلى المسيح. يُعبَّر عن دلائل

الروحانية الزوجية هذه في مجالات مختلفة كما يبين ذلك الأب كافاريل في مقال له في مجلة "الخاتم الذهبي" عام ١٩٤٥ تحت عنوان "المسيح والعائلة".

يوجد ثلاثة مستويات لهذه الروحانية: التعاون، الالتزام، تكريس الزوجين.

التعاون

تبقى نِعَم الزواج عقيمة إذا لم يصاحبها تعاون الزوجين ورغبتهما في العمل في حياتهما اليومية ومن خلالها خدمة من أوكلوا بهما. حين يطلب الله تعاوننا يستثير فينا حرية أبناء الله. وفي إطار الزواج، يستدعي الله حرية مكونة من خلال التبادل بين الزوجين اللذين سوف يبنيان انطلاقاً من حريتهما الشخصية حرية زوجية حقيقية. يعبَّر عن هذه الحرية بخيار مشترك لمحبة الله فالله يريد أن نحبه وأن نفضّله وأن نختاره.

وللتعاون حول النِعَم الزواجية، يكفي أن نحب دائماً أكثر وبشكل أفضل إذ كما يقول الأب كافاريل: "منذ اليوم الأول يترابط الحب والنعمة: النعمة تدعو إلى الحب الأفضل والحب ينفتح بشكل أكبر إلى النعمة".

يتجلى هذا التعاون اليومي بأعمال:

- البحث عن حميمية أكبر بين القلوب بواسطة واجب المجالسة والصلاة الزوجية والعائلية.
- تقديم الذات بشكل كامل في تبادل جسدي يحترم الآخر ضمن عفة زوجية حقيقية.
- تربية الأولاد والاهتمام بالأقرباء: الأهل، الأحفاد، العائلة... في روح إنجيلية: "أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم".
- أن يكون الزوج أو الزوجة مسيحياً في عمله مما يتطلب بالتأكيد استخدام جميع الفضائل المسيحية وعلى الأخص ألا يجعل الأزواج المسيحيون من الحياة المهنية حياة شخصية لا تتعلق بالكوبل والعائلة. يكون العمل في البيت أو خارجه موجهاً بشكل كامل نحو من هم الثمرة المباشرة للاتحاد الزوجي إذ لا يمكن أن يكونوا غرباء أو مستبعدين.

الالتزام

ما نسميه "الالتزام" هو الرد البشري والشامل والكامل وغير المشروط لنداء الله. وهو يشكل جزءاً مكملاً وتاماً من السر الذي يشكّل رداً حسياً عليه. وبالفعل فإن كلمة سر باللاتينية "sacrementum" تعني "قَسَم".

بقي هذا المعنى الأول حاضراً في الأسرار التي تكوّننا في أحد مواقف الحياة: العماد والتثبيت والكهنوت والزواج بدون شك. بهذا القَسَم المتبادل من الله تجاهنا ومنا تجاه الله، لا ننظم أعمالنا فقط

للمسيح بل حياتنا بكاملها. وفي الزواج ترتبط الحياة الزوجية أو ما يسميه الأب كافاريل "كياننا الزوجي" ترتبط بالمسيح وتنتمي إليه بدون شرط.

كوننا ننتمي إلى أخويات عائلات مريم، تدعونا الشرعة إلى أن نعيش التزامات عمادنا حتى النهاية وإلى أن نجعل من زواجنا طريق قداسة. هذا القَسَم وهذا السر وهذا الالتزام عظيم جداً بحيث نستطيع القول: "كل ما هو لي هو للرب". أجسادنا تخص المسيح وأولادنا للمسيح وبيتنا للمسيح وجميع ممتلكاتنا هي للمسيح... يذهب هذا بعيداً جداً وأبعد مما يمكن أن نعتقد بما أن حياتنا بكاملها تحمل علامة المسيح بالرغم من كوننا خطأة.

وبالنسبة للزوجين، طالما أن علامة العهد باقية فسيدوم كذلك التزامهما في المسيح وأي جزء من هذا الالتزام لا يمكنه الإفلات من هذه النعمة وهذه المسؤولية والروحانية الناتجة عنها. إن اتحادهما يحمل سمة غير قابلة للإزالة وسوف يشابه بالتدريج عهد المسيح مع كنيسته ويكون انعكاساً له. إن الروحانية الزوجية التي يعيشها الزوجان بأمانة للإنجيل تعطيها الوسائل كي لا يكتفيا بحب عادي يرمي إلى تجزيء حياتهما الزوجية إلى قسمين: قسم لله وقسم لهما.

وكونهما يعرفان ميلهما إلى هذا الخيار الثنائي المتفرع والغامض، يختاران وسائل قاعدة الحياة وقراءة كلمة الله وزمن الرياضة الروحية وخاصة وسيلة إعادة قراءة حياتهما في الأخوية، كي يوحّدا حياتهما ويجعلاها متوافقة مع المسيح. وكونهما يعلمان في قرارة نفسيهما قيمة الالتزام، يكرّسان ذاتيهما للآخرين في عمل الكنيسة الرسولي وينذران نفسهما للعالم الذي يعملان فيه. وكونهما يجعلان من حياتهما علامة لحب الله، يلتفتان إلى القريب عن طريق المساعدة المادية والروحية ليعيشا ملء المحبة "لأنني بدون المحبة لست بشيء".

التكريس

لا يكفي أن يتعاون الزوجان بالإيمان في عملية الخلق وفي عمل الله، ولا يكفي أن يرهنا حياتهما وأن يلتزما شخصياً. يكون هذا كله في خدمة رسالة ويستجيب لنداء ولدعوة ألا وهي أن نسبّح الآب وأن نعبده بصفتنا ابناً وابنة، وهكذا نرفع نحوه الحب الذي يهبنا إياه والذي يحيينا.

السر هو الذي يهبنا هذه الوظيفة المقدسة وهذا ينطبق على جميع الأسرار بما يرافقها من نِعَم خاصة بها. وبشكل مماثل، يؤسس الزواج "حياة مكرسة" لا يكون مصدرها الله فحسب بل هي تعيش من الله وتعود إليه بشكل مستمر. الزواج ليس مقدساً فقط بل هو يشبه كأساً مقدسة صالحة للعبادة الإلهية ويمكن بذلك أن تستخدم في الرتب الطقسية. وحينها يشبه الزوجان كنيسة صغيرة تتلقى العلامة التي يضعها الله على الشيء أو الكائن الذي يختاره. إلا أنه يوجد في هذا التبادل علامة إرادة الزوجين في أن يعيدا إلى النبع الأفراح والمصاعب والأعمال والحب الذي يوحدهما، والمطلوب أن يبلغ إيمان كيانهما الزوجي وروحانيته هذه النقطة.

وباعتبار أن الزوجين ينتميان إلى سلالة كهنوتية ونبوية وملَكية فإن العبادة التي يقدمانها لله لا تعود إليهما فقط بل إلى الخليقة بأجمعها. وتجد هذه العبادة اكتمالها في صلاة الزوجين وفي مناجاتهما وفـــي مشاركتهما المنتظمة بالافخارستيا التي يعيشانها بقلوب محررة من الخطيئة، وفي الممارسة المنتظمـــة للأسرار.

النتيجة

المسيح يقدم لنا الخلاص ليس كشيء جاهز ومكتمل التنظيم والبناء والعرض.

بطريقة ما، وكما سبق للقديس بولس أن أشار إليه، فإن هذا الخلاص الموضوع بين أيدينا، علينـــا بالذات تقع مهمة اكتشاف جميع إمكانياته واستخلاص جميع نتائجه وإنماء كامل طاقته.

تبدو مهمة العلمانيين المتحدين بسر الزواج واضحة إذ عليهم أن يشهدوا أن الخلاص الذي جاء بـــه المسيح يجد منبعه في حبه، وهو ينشر حبهم البشري بجعله قادراً على مواصلة طريق حيـــاتهم فـــي الإيمان المسيحي حتى القداسة بواسطة الزواج وفي الزواج.

إلا أننا لا نحصل على القداسة بقوانا وحدها فالله هو الذي يختار قديسيه بين أولئك الـــذين يظلـــون متيقظين لمشيئته ونداءاته ووصاياه.

ولا شك أنه بالنسبة للزوجين فإن نوعية حياتهما الروحية الزوجية هي التي تحدد خيار الله. وهـــذه الروحانية الزوجية هي التي تدفع الزوجين إلى الرد "نعم" على الدعوة التي وجهها يسوع إلـــى رســـله لاتّباعه.

في نهاية حديثنا نود أن ندع الأب كافاريل يحدثكم كما فعل في حديثه "الزواج دعوة قداسة"، عـــن حب الزوجين الأمثل، الحب الذي نعتقد أنه عاش الروحانية الزوجية المثلى، إنه الحب الذي عاش بـــه مريم ويوسف.

"لهذا الزواج صفة فريدة هو أنه اتحاد كائنين مكرّسين مسبقاً إلى الله والله هو الذي قدّم أحدهما إلى الآخر: لقد بدأا حيث لا يصل آخرون – وبشكل غير كامل – إلا بعد مسير شاق. ولكن هذا كان سبباً لأن يحب واحدهما الآخر بشكل أكبر.

أي حب زوجي يمكنه الادعاء بأنه ينافس حبهما؟ كانا يحبان أحدهما الآخر بحب الله ذاته... هـــل أعطاهما المسيح الوصية الكبرى التي تركها لتلاميذه: "كونوا واحداً كما أن الآب وأنا واحـــد"؟ لـــست أدري إلا أنه من المؤكد أنهما قد حققا هذه المثالية أفضل من أي كان. ولذلك لا يوجد لدى الـــزوجين اللذين يتطلعان إلى القداسة مثال أعلى من مثال زواج يوسف ومريم.